الجزء ٨ المجلد ٦

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) آب سنة ١٩٢٦ م الموافق محرم وصفر سنة ١٣٤٥ هـ

إعراس[1] الخليفة المأمون

« ببوران بنت الحسن سنة ٢١٠ هـ »

ايها السادة :

نستأذنكم في بيان لا بد منه . نجعله تمهيداً للوصول الى ليلة العرس وهو ينطوي على التعريف بالعريس ، وقد لا يوجد بيننا من يجهل صاحب هذا الاسم المظيم ، الا ان في تعريفنا فائدةً وفكاهةً غير خارجتين عن موضوع محاضرتنا .

وفي علمكم ان الدخول على العظماء من السلاطين والامراء ، لم يكن مباحاً الا بعد الاستئذان ، وانتظار الايام الطوال . لصدور الاوامر الملوكية ، ثم لا يتم ذلك الا بعد المرور في الساباطات والاقباء . ودخول القصور والتقدم في متعددة الأفنية والرِدَاء والأبهاء ، الى ان يُبشَّر بالوصول الى بهو السُدَّة . ومعاينة صاحب السرير ، ونحن سنسير على هذا النحو ، فننتقل من تعريف الى تعريف ، حتى نصل الى وصف ذلك العرس الشريف .

اما المدة او المسافة التي بيننا وبين ليلة العرس فهي الف سنة ومئة واحدى وثلاثون سنة (١١٠٦ مسيحية) وهي مسافة شاسعة لايمكن قطعها في ليلة واحدة ، بل لا بد لنا من تجاوز هذه المدة ايضاً الى ما قبلها بمئتين واربع عشرة سنة ، فتكون

(١) محاضرة الاستاذ المحقق قسطاكي بك الحمصي احد اعضاء المجمع العلمي تُليت باسمه في ردهة المجمع بدمشق يوم ٢٨ ايلول ١٩٢٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جملة المسافة التي نجتازها للوصول الى بدء تأريخنا ، الفا وثلاثمائة واحدى وستين سنة هجرية (١٣٢٠ مسيحية) .

ولا يهولنكم قطع هذه المسافة الشاسعة ، فاننا في عصر الكهرباء ، وسنجاري الكهرباء بسرعتها ، فنقطع كل سنة بثانيتين .

للأمم وملوكها ودولها تواريخ مجهولة ، وتواريخ معلومة ، اما المجهولة فهي المدد التي عاشت فيها تلك الامة دون دول وملوك ، وكانت في حالة الهمجية ، واما تواريخها المعلومة ، فالقديمة منها ما وصلت الينا أخبارها وشاهدنا بعض آثارها ، كالدول المصرية القديمة . واليهودية . والكلدان . والاشوريين . والحثيين . وفارس . واليونان . والرومان . والعرب . وكثير غيرها ، وكلها قد باد ملكها وزالت دولها ، وتشعبت شعوبها او انقرضت وضاعت لغاتها اكثرها حتى لم يبق على وجه الارض فرد ينطق بها او يقرأ كتاباتها او يحل رموزها ، ولا يُستثنى من مئات تلك الامم ، الا امة واحدة ، هي الامة العربية ، أمتكم .

« الامة العربية »

هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح ، وأعظمهم قدرة . وأشدهم قوة . وآثاراً في الارض ، واول أجيال العرب من الخليقة ، وكان لهم ملوك ودول في جزيرة العرب ، وامتد ملكهم الى الشام ومصر وقيل ان فراعنة مصر منهم ، ويقال انهم انتقلوا الى جزيرة العرب من بابل لمزاحمهم فيها بنوحام ، ثم كان لكل فرقة منهم ملوك وحصون وقصور وابنية مرتفعة ، وكانت مواطنهم بين اليمن وعُمان الى حضرموت والشَحْر ، وقوم منهم العماليق اختطوا يثرب ، ومن العرب بنو ثمود وكانت ديارهم بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال ، وهؤلاء كلهم يسمون العرب العاربة او العرب البائدة لطموس اخبارهم وبُعد تواريخهم وهم الطبقة الاولى من هذه الامة .

اما الطبقة الثانية منها وتسمى العرب المستعربة ، فأشهر ملوكها يعرب بن قحطان واشهر شعوبها حمير وكهلان .

واما الطبقة الثالثة فتسمى العرب التابعة للعرب وهم من البادية اهل الخيام لم يزالوا من أعظم أمم العالم واكثر أجيال الخليقة ، ينتهي اليهم العز والغلبة بالكثرة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيظفرون بالملك ، ويغلبون على الاقاليم والأمصار ، ثم يهلكهم الترفه والتنعم فيُغلبون .
وهذا كله ملخص عن ابن خلدون وهو من ثقات المؤرخين .

ولقّب العرب بعد الاسلام من كان قبلهم على أُمتهم بالجاهلية ، اختصوا بذلك عبدة الاصنام والمشركين ، اذ انهم كانوا يعلمون ان قبائل خيبر يهودٌ عرب مثلهم ، وعرب الشام نصارى وكان لهم قبل ذلك ملك الحجاز ، وكلاهما اهل كتاب .

ولكن هذا اللقب لا يصدق ايضاً على عبدة الاصنام والمشركين من العرب اللهم الا من قِبَل تمسكهم بعباداتهم بعد الاسلام ، اوجهلهم الكتب المنزلة ، قال في كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية ما تعريبه : ان هذا النعت لا يطابق الحقيقة ، اذ للبدو معرفة واسعة بالانساب وكل ما يتعلق بالتاريخ ، وكانوا يعرفون مراقبة سير النجوم ، بل فوق ذلك كله كانوا يقرضون الشعر المتخيل اللطيف ، وهو ما لا يتفق مع الخشونة التي أُلصقوها بهم ، ثم انه وان كان الكلام عن عامة العرب ، فيجب ان لا يفوتنا ان العرب كانوا قسمين ، قسماً ظاعناً ، وقسماً مقيماً ، فالمقيمون منهم كانت لهم مدن في الامصار العربية ، وهؤلاء أدركوا شوطاً بعيداً من المعارف . انتهى كلام الموسوعات .

وان أُمة بنت سد مأرب ، وقصر غمدان ، وضربت السكة ، ونقشت عليها صور ملوكها ، واخترعت الحروف الحميرية ، وكتبت وحفرت كتاباتها على الحجر وغيره ، وهي بين أيدينا بعد عشرين قرناً ، نقول ان أُمة كهذه قد اتقنت ولا ريب فن الهندسة ومايتعلق بها ، ورصدت النجوم ، وقرضت محاسن الأشعار ، وبرعت في غير ذلك من العلوم والصناعات ، لانكر عليها المدنية كما انكرها عليهم بعض علماء المشرقيات في الغرب ، ومنهم العلامة (پرؤ Preux) ، الا انه لم ينكر مدنية الشرق الاسلامي كما تغالى بعض متعصبي الفرنجة ، فأنكر الهندسة العربية ، والعربية الاسلامية وآثارها ماثلة للعيان في الاندلس وغيرها ، ولكن لاعبرة بقول من يجحد المنظورات ولله در القائل :

ويظهر الجهل بي وأعرفه والدرّ درٌّ برغم من جهله

هذه أيها السادة مقدمة إجمالية ، في اولية الامة العربية ، ولما كانت جميع الدول العربية السابقة الاسلام ، كالعيون بالنسبة الى الاوقيانوس ، او كالبروق في ظلمات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الليالي ، بجانب الشمس المنيرة يجمل بنا ان ننظر في أولية الدول العربية ومنشئها :

خذ ما نظرت ودع شيئاً سمعت به في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

« دولة الخلفاء الراشدين »

اول عظيم قام في العرب ، هو ولا ريب النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم الى عبد مناف فما فوقه . ثم خلفه بعد وفاته ابوبكر الصديق ، ثم خلفه عمر ابن الخطاب ثم عثمان بن عفان ، ثم علي بن ابي طالب . وهذه هي الدولة العربية الاولى في التاريخ الاسلامي ، بدؤها منذ اعلان محمد نبوءته ، وذلك لستمائة وعشرين سنة مسيحية اي بعد مولده الشريف باثنتين واربعين او احدى واربعين سنة الى وفاة الامام علي مقتولاً وذلك سنة ٦٦٧ فتكون مدتها نحو سبع واربعين سنة . فتمت بها هذه الدولة البدوية ، اليمن والعراق والشام (اي سورية) بفلسطينها ، وممالك فارس وارمينية ومصر وطرابلس الغرب وبلاد اذربيجان وافريقية والاندلس وقبرس والافغان .

« بدء الدولة العربية الثانية دولة بني أمية »

في السنة الاربعين من الهجرة وهي السنة السابعة والستون بعد الستمائة للمسيح ، بويع بالخلافة في بيت المقدس اول من أسس دولة بني أمية وجعل سرير الخلافة في دمشق .

ومعاوية هو السلطان العظيم داهية رجال العرب معاويةُ بن ابي سفيان صخر بن حرب بن أمية الذي يُنسب اليه الأمويون ، ملك ثماني عشرة سنة ، وكان في الحلم غاية لا تُدرك ، ومما يؤثر من كلامه قوله : اني لأرفع نفسي من ان يكون ذنبٌ أعظم من عفوي ، وجهلٌ اكبر من حلمي ، وعورةٌ لا أواريها بستري ، وإساءةٌ اكثر من احساني » وأغلظ له القول رجل ، فقيل له : « أتحلم عن هذا ؟ فقال اني لا احول بين الناس وألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » .

وهو اول خليفة في الاسلام ، بايع ولده واكره الناس على مبايعته واولُ من استعمل الحجاب على بابه من ملوك العرب ، واول من اتخذ منهم ديوان الخاتم وحزم الكتب اي ختمها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن مُلح التاريخ ان عامله على مصر عمرو بن العاص أول ما قدم عليه في جماعة من اكابر مصر قال لهم عمرو قبل دخولهم على معاوية : لا تسلموا عليه بالخلافة — اي لا تقولوا له السلام على أمير المؤمنين — ذلك أهيب لكم في قلبه وصغروا ما استطعتم ، وبلغ ذلك معاوية فأوصى حجابه ان يتعتعوهم أشد ما يكون قبل دخولهم عليه ، اي ان يسترهبوهم و يستنزلوا الرعب والخوف على قلوبهم فيتلعثمون ، اي يستولي عليهم العي والحصر فيترددون في كلامهم ، فقال اولهم عند دخولهم السلام عليك يا رسول الله وتتابع القوم على ذلك ، فلما خرجوا قال لهم عمرو لعنكم الله نهيتكم ان تسلموا عليه بالإمارة فسلمتم عليه بالنبوة .

وخلفه بعده ابنه يزيد ملك ثلاث سنين وتسعة اشهر واياماً . ثم ملك بعده ابنه معاوية الثاني أقام اربعين يوماً ومات . وتولى الخلافة بعده مروان بن الحكم بن أمية وأقام عشرة اشهر وتوفي . ثم خلفه في الملك بعده ابنه عبدالملك ، وكان من اعظم بني أمية بطشاً ، واوفرهم دهاء ، واكثرهم حروباً ، واشدهم شجاعة وحزماً ، واغزرهم علماً وعقلاً ، وهو اول من ضرب الدنانير والدراهم في الدول العربية بعد الاسلام ، واول من نقل الديوان ، اي حسابات الدولة من الفارسية الى العربية ، واول من نهى عن الكلام في حضرة الخلفاء ، وكانت مدة ملكه عشرين سنة وخمسة اشهر ودفن بدمشق .

ثم خلفه ابنه الوليد وكان جباراً عنيداً ، وكانت مدة ملكه تسع سنين واربعة اشهر واياماً . ثم خلفه اخوه سليمان وملك سنتين وسبعة اشهر . ثم خلفه ابن عمه عمر ابن عبدالعزيز بن مروان ، ظل سنتين واربعة اشهر ، ودفن بدير سمعان ، وبه وبعمر ابن الخطاب جرى المثل بعدل العمرين . ثم خلفه يزيد بن عبدالملك وأقام اربع سنين . ثم خلفه اخوه هشام وأقام تسعة عشرة سنة واياماً ودفن بالرصافه . ثم تولى بعده الوليد بن يزيد بن عبدالملك أقام سنة وشهرين ونيفاً وقتل بدمشق . ثم تولى يزيد بن الوليد أقام خمسة اشهر واياماً . ثم خلفه ابراهيم بن الوليد أقام سبعين يوماً وخلع نفسه . فخلفه مروان الثاني أقام خمس سنين الا عشرين يوماً ، وكان شجاعاً حازماً ، الا ان ايامه كانت ايام فتن وحروب ، قُتل بآخرها في كنيسة من بوصير بصعيد مصر ، وكان هارباً من وجه العباسيين ، وهو آخر خلفاء هذه الدولة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعدتهم اربعة عشر خليفة . بنوا المدن ، ومدنوا القبائل وغزوا وفتحوا ، وعمروا بلاداً عديدة ، ومدوا ملكهم الى الهند بآسيا ، والى صقلية اي سيسيليا باوربا ، والى اقاصي المعمور من افريقية في مدة تسعين سنة فقط .

« الدولة الثالثة وهي دولة العباسيين »

بُدئت بابي العباس الملقب بالسفاح لكثرة من قتل في اول دولته وسميت بالعباسية نسبة الى جد هذا البيت ، العباس من بني هاشم ، وبنو هاشم وبنو أمية ينتمون جميعاً الى عبد مناف ، وكلهم من قبائل قريش ، ويدعي الهاشميون الرئاسة وتعترف لهم بها قريش كلها الا ان بني أمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم ، والعزة بالاكثر ، ولم قبل الاسلام شرف معروف ، فوصل معاوية الى الخلافة بذلك ، وأسس قواعد الدولة الأموية ، فكان بين العباسيين وبين الأمويين منذ تبوأ معاوية الخلافة ، مايكون بين بيوت الملك في الدول ، من التحاسد والتضاغن ، وكان العباسيون لايفترون هم وقومهم من بني هاشم ، عن نصب المكائد ، وتسعير الفتن وايغار الصدور ، والطعن على اعمال الأمويين وعمالهم ، والادعاء عليهم باغتصاب الخلافة من بيتهم ، وكان الأمويون يشددون على بني العباس وشيعتهم ، بين سجن وتعذيب وقتل كلما رابهم منهم مريب ، وكان بين البيتين من الوشاة والحساد والمفسدين ، مايكون مثله في قصور الملوك ودور الامراء ، سنة في الخلق وخليقة من طبائع العمران .

ولم تعدم دولة الأمويين خلفاء يُعدّون من أعاظم ملوك الارض دهاء وتدبيراً وحزماً وعدلاً ، كعبدالملك بن مروان وابنيه الوليد وهشام وعمر بن عبدالعزيز ، كما انها لم تخل من خلفاء أبطرهم الملك فأفسدوا وأساؤا كالوليد بن يزيد ، وكانت اتسعت فتوح الدولة الأموية وامتد ملكها امتداداً لايصونه ، الا العدل والقوة والتدبير ودهاء السياسة . وكان دعاة بني العباس منذ زمن طويل قد انتشروا في الحجاز والعراق وبلاد فارس ، يبثون الدعوة للعباسيين ، ويفسدون على الأمويين اعمالهم ، ويطعنون فيهم وفي عمالهم حتى انحرفت عنهم اكثر قلوب الامة .

ولما استوثق السفاح من شيعته ، جاهر بدعوة الخلافة لنفسه ، فبايعه الناس بالكوفة وغيرها في السنة الثانية والثلاثين بعد المئة للهجرة ، وهي تقع في الخمسين بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السبعمائة للمسيح ، وظلت خلافتهم في بغداد خمسمائة واربعاً وعشرين سنة ، تولاها سبعة وثلاثون منهم ، ثم انتقلت الى مصر وتولاها فيها ثلاثة عشر خليفة منهم ، خلافة لم يكن لهم منها غير الاسم .

أقام السفاح اربع سنوات وأشهراً وتوفي سنة ١٣٦ (سنة ٧٥٤م) . ثم خلفه اخوه ابو جعفر المنصور ، كان مهيباً شجاعاً يقظاً مدبراً عالماً فصيحاً ، داهية ظالماً بخيلاً ، بنى مدينة بغداد ومهد اطراف ملكه الشاسع ، وترك عند موته خزينة الملك مملوءة من أموال الخراج والمظالم ما يكفي خلفه عشر سنين ، بعد ان أقام في الخلافة اثنتين وعشرين سنة وتوفي للثامنة والخمسين بعد المئة (سنة ٧٧٦م) . ثم خلفه ابنه المهدي ملك تسع سنين وعشرة اشهر ، وكان حليماً كثير العفو عن المذنبين ، باهر الجمال ، توفي مسموماً على اصح الروايات للتاسعة والستين بعد المئة (سنة ٧٨٦م) .

ثم خلفه ابنه موسى الهادي ملك سنة وثلاثة اشهر ، وكان جواداً فصيحاً عالماً مهيباً ، مات مسموماً في السبعين بعد المئة (سنة ٧٨٧م) .

اما هرون الرشيد فهو ابعد ملوك الارض صيتاً ، وأعظمهم همةً ، واكثرهم غزواً ، وأوفرهم حباً للأدب والشعر ، وأشدهم كرماً ، كان داهيةً باحوال السياسة ، شديد البطش ، عالماً ناصراً للفنون ، شاعراً محباً للعمران والحضارة ، زين بغداد بالقصور المتعددة ، والمباني الفخمة ، والمصانع النافعة ، والمدارس والمساجد ، وبنى مدينتي الرقة والهارونية ، ولم تزل أطلال قصره وبعض جدرانه قائمة الى اليوم في الرقة . وقد شاهدتها وعدت عنها حزيناً .

ولم يسبقه احد من ملوك الارض بفرط تكريم العلماء والشعراء ولم يحاكه احد بوفور الانعام عليهم ، وكان موفقاً محظوظاً .

فقد ازدان ملكه بوزرائه بني برمك الذين كانوا من محاسن الدنيا عقلاً وحكمة ، وادباً وجوداً ، ثم نكبهم نكبة تناقلتها القرون ، لاستبدادهم بالملك والملك عقيم .

الا ان بعض مؤرخي الفرنج — ومتأخرهم ينقل عن متقدمهم ما يروونه عن العرب دون تمحيص — لم ينصفوا الرشيد فأكثرهم يصفه انه كان أثراً ظالماً عتياً ، يستشهدون بايقاعه بالبرامكة وبما حكاه القُصاص من العرب عن نكبتهم ، وما تكهنوه لها من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسباب التي تخالف كل قياس منطقي ، وذلك نقلاً عن ألسنة العامة بعد وقوعها بزمن طويل . اذ اننا لم نجد مؤرخاً ثقةً نقل حقيقة السبب الذي حدا الرشيد الى ذلك القصاص الشديد بعد علو القدر وجلالة المنزلة التي كانت ليحيى البرمكي واولاده عنده ، وأحسن ما قرأته عن ذلك وأحسبه أقرب الى الحقيقة من كل ما روي ، ما ورد عن سعيد بن سالم وقد سُئل عن جناية البرامكة فقال ماتحصيله : ان الرشيد رأى كثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه . والملوك تتنافس باقل من هذا ، الى ان قال ووقع منهم بعض الادلال خاصةً جعفر والفضل دون يحيى : فانه كان أحكم خبرةً واكثر ممارسةً للامور ، ولاذ بالرشيد من اعدائهم كالفضل بن الربيع فستروا المحاسن وأظهروا القبائح .

هذا ما ظهر لهذا الرجل ، وما يدرينا ما ثبت عليهم عند الرشيد من الذنوب والجنايات ، كإصدار امرٍ او نهيٍ باسم الخليفة دون مشورته ، اواستخفاف باوامره ونواهيه ، ولعل هذا كل السبب في ذلك كما يفهم من اطلاق جعفر ليحيى بن الحسين وكان خارجاً على الخلافة ، ولما سأله عند الرشيد أقسم له برأسه انه لم يزل محبوساً ، وكما يفهم من الابيات التي رفعت الى الخليفة وهي :

قل لأمين الله في ارضه ... ومَن اليه الحلُّ والعقدُ
هذا ابن يحيى قد غدا مالكاً ... مثلك ما بينكما حدّ
امرك مردودٌ الى امره ... وامره ليس له ردّ
وقد بنى الدار التي ما بنى ... فرسٌ لها مثلا ولا الهند
ونحن نخشى انه وارثٌ ... ملكك ان غيّبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه ... الا اذا ما بطر العبدُ

ونحن نرى في هذه الحكاية ووراء هذا اللفظ يداً بل أيدياً عباسية ، وصدوراً مُلئت حقداً على جعفر وغيرةً منه ، ونفساً هاشمياً ، والناقد البصير يرى في صلب جعفر وحبس ابيه وأخيه وسائر قرابتهم ، ما يؤكد ان ذلك القصاص الشديد كان فمعاً لفتنة كامنة ، وقطعاً لالسنة طاعنة ، وردعاً لكل استخفاف بسلطان الخلافة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد حُظر على الناس التحدث بذلك يومئذ كما يفهم من قول الشاعر الرقاشي في رثاء البرامكة :

فلم ار قبل قتلك يا ابن يحيى حساماً فلّه السيف الحسام
اما والله لولا خوفُ واشٍ وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام

ووقع أمثال هذه الحادثة بعدها في كثير من دول الغرب ، ورأى غير واحد من مؤرخيهم عدالة ذلك القصاص في شرع السياسة . على ان أدقّ من نظر من المؤرخين في هذه الحادثة نظراً سياسياً مطابقاً لعادات ذلك العصر وشؤونه ، ودحض هذر القصاص ، هو الفيلسوف ابن خلدون ، وبهذا كفاية للرد على أقوال بعض المؤرخين من الفرنجة وغيرهم .

ولنعد الى تتمة الكلام على هارون الرشيد فقد تحلى بلاطه بعظماء الرجال من كل فن ، فمن أطبائه آل بختيشوع ، ومن شعرائه ، ابو نواس . وابو العتاهية . ومسلم ابن الوليد . والعباس بن الاحنف وأضرابهم ، ومن القُصّاص الخليل بن احمد واضع العروض . والاصمعي ، ومن الندماء ابراهيم الموصلي . وزلزل . وابن جامع . وابن ازفّ وأضرابهم ، وقضاته ابو يوسف يعقوب الانصاري وابنه يوسف . وابو البختري وهب القرشي وأمثالهم ، ومن العلماء سيبويه . وابن يونس ، ومن الأئمة ابوحنيفة . والشافعي . والامام احمد بن حنبل . ملك اثنتين وعشرين سنة وسبعة اشهر شمسية وتوفي للسنة الثالثة والتسعين بعد المئة للهجرة (٨١٠م) في طوس ودفن بها . وأجمع المؤرخون على ان الرشيد ترك في بيت المال تسعمائة الف الف دينار ، والدينار يساوي مثقالاً ذهباً او نحو ليرة فرنسوية ، ولعل الاصل تسعون الف الف اي تسعين مليوناً .

وقال ابن خلدون وهو ثقة : رأيت في بعض تواريخ الرشيد ان المحمول الى بيت المال في ايامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة انتهى قوله . والقنطار فيما ذهب اليه المحققون اربعة آلاف دينار ، فتكون جملة ذلك ثلاثين مليوناً من الدنانير ، وهو مبلغ لا يستكثره مَن وقف على سلطان الدولة العباسية . وقد كانت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدولتان العربيتان قبلهـا مهدتا لها الملك الشاسع ، فاستباحتا لها ملك فارس والروم اهل الدولتين العظيمتين في العالم لذلك العهد ، والترك بالمشرق حتى الصين ، والفرنجة والبربر بالمغرب ، والقوط (الكوت) بالاندلس ، وخطت جنود العرب من الحجاز الى السوس الاقصى ، ومن اليمن الى الترك باقصى الشمال واستولت على الاقاليم السبعة . وكانت لعهـد الرشيد تحمل المكوس والضرائب والجزية والخراج الى بيت المال من الهند والصين ومصر وفارس وسورية وغيرها .

ثم خلفه ابنه محمد الامين أقام في الملك اربع سنين وخمسة اشهر او تزيد ، وكان شجاعاً اديباً شاعراً ، محباً للهو ناقص التدبير ، فاختل الملك ، وسعى الوشاة بينه وبين اخيه المأمون ، ففسد مابينهما ، وكثرت الفتن وقامت الحرب بينهما ، وقتل في آخرها الامين وذلك سنة ١٩٨ (٨١٤م) .

ثم قام في الملك بعده بطل محاضرتنا امير المؤمنين ابوالعباس عبد الله المأمون السابع من بني العباس . واذ وصل بنا الحديث الى خلافة المأمون ، فيجدر بنا ان نلقي نظرة إجمالية على بسيط مملكة الممتد الاطراف ، البعيد الاكناف ، ثم على دخل خزينته ، ليكون السامع على ثقة بما نرويه عن نفقات ذلك العرس ، وهو مما لم يرو له شبه في تاريخ أمة من الامم ، ثم نلمح بغداد مقر الخلافة العباسية لمحة سريعة لنعلم كيف كانت لعهد ذلك العرس ، ثم نلم بشيء من صفات المأمون واخلاقه وعلومه وغزواته ، ثم نتعرف بحمي الخليفة وهو الحسن بن سهل ، ثم ببوران ابنته عرس المأمون .

« المملكة العباسية »

كانت المملكة العباسية لعهد المأمون ممتدة في آسيا من بغداد وسائر العراق الى الحجاز واليمن وفلسطين والشام (اي سورية) وارمينية ومملكة فارس (ايران) وافغانستان وقسم من الهند والصين ، ثم مصر في افريقية واكثر اليمور منها ايضاً ، قال ابن خلدون : وجد بخط احمد بن محمد بن عبد الحميد عمل (اي حساب) بما يحمل الى بيت المال ببغداد ايام المأمون من جميع النواحي نقلته من جراب الدولة (اي دفتر) وعدد الغلات بلداً بلداً ومملكةً مملكةً فبلغت ثلاثة ملايين وثمانمائة وسبعة عشر الف دينار ومائتي مليون وسبعة وستين مليوناً وثمانمائة وخمسة وعشرين الفاً وثمانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دراهم اه . فاذا حسب الدرهم عشر الدينار حسب رواية ابن خلدون وغيره ، كان مجموع الدخل في تلك السنة ثلاثين مليوناً من الدنانير ، ما خلا الوفاً من سبائك الفضة ، والوفاً من الحيوان كالخيل والبغال والبراذين والبقر والغنم ، والرقيق والثياب والاكسية الحريرية والزيت والعسل والعود الهندي والفرش والبسط والتمر وعطر الورد والسكر وغيره ، وذلك كما كان لعهد ابيه هرون الرشيد حسبما بيناه بل ربما زاد عنه ، وهذه الاموال كانت تحمل الى بيت المال من العمال والولاة في تلك الاقطار ، وكان الخليفة يولي عليها كبار الرجال والقوّاد من اهل بيته ، او ممن لهم سابقة خدمة في الدولة من اهل الكفاية والتدبير ، وهؤلاء يولون من هم دونهم من ذويهم وصنائعهم على جباية الخراج ، وكانوا في الغالب يجعلون الجباية إقطاعاً اي الزاماً او مزايدة ، كما اشير ليومنا هذا ، ولما كان الظلم من الاخلاق الانسانية ، والامانة عزيزة في الطبائع البشرية ، وكانت الفتوح في ذلك العهد وقبله كثيرة ، وطرق الكسب والغنائم سهلة متوفرة ، فكان كسب الولاة وعمالهم يومئذٍ مما لا يكاد يصدق لو لا ما لدينا من الحقائق التاريخية التي لا ريب فيها .

وكان للدولة العباسية خزانة أخرى تسمى بيت مال المظالم ، وهي الاموال التي كان يستصفيها الخليفة من وزرائه وعماله ، او التي كان يغتصبها الولاة والعمال ممن هم دونهم عند الارتياب بامانتهم ، او الطمع بثروتهم ، فيُنزلون عن مراتبهم ويسجنون ، وعاقبة ذلك في الغالب القتلُ صلباً او خنقاً ، وتُستصفى أموالهم من صامت وناطق ، وأملاكهم جميعها وتحمل الى بيت مال المظالم . واما ما كان هنالك من كنوز الأموال والدرر النادرة ، والجواهر الفريدة ، وغرائب التحف الثمينة ، وعجائب المصنوعات فحدث عن البحر ولا حرج ، ومثل هذا كان جارياً لذلك العهد وبعده ، في سائر الدول ، دون بيت مال يسمى مال المظالم ، وليس عهد ذلك ببعيد في الدولة التركية . فاذا عُلم هذا كان تمهيداً لما يأتي عن ثروة الحسن بن سهل ختن المأمون وكرمه الجم .

« للكلام صلة »

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إعراس الخليفة المأمون

- ٢ -

« مدينة بغداد »

امر ببنائها ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين ، وأتم بناء قصره الكبير فيها في السنة ١٥٧ للهجرة ، وكانت لعهد ليلة العرس ، فسطاط العالم ، واكبر مدينة على وجه الارض ، وقد بلغت من العظمة والأبهة والسعادة ، مالم تبلغه مدينة ، فشيدت بها القصور الفخيمة ، والصروح العظيمة ، والمصانع العديدة ، والجسور والقناطر والمدارس تحاكي القصور ، والمساجد الجليلة ودور الكتب ، والجنات والحدائق والبساتين ، والأسواق الكبيرة والوف الحمامات ، وأنشأ المأمون فيها مرصداً فلكياً ، وكانت دار الخلافة نفسها مرصعة بالمعادن النفيسة التي اجتلبت من أطراف الممالك ، وفيها من الحجارة الكريمة والأمتعة الثمينة ، والرياش الفاخر والآنية البديعة ، وغير ذلك من نوادر التحف وغرائب الماعون ، ما لم يجتمع مثله في مدينة من مدن العالم ، وكانت ضواحيها آهلة معمورة حتى الرقة ، وعلى جانبي بغداد كانت المدن الصغيرة كالجعفرية ، والهارونية ، والمهدية ، والمأمونية ، وفيها القصور للخلفاء ولوزرائهم وقوادهم وأكابر الناس ، والصروح والجواسق والجنان والبساتين والمزارع والقرى والمصانع ، مما يعجز القلم عن وصفه ، وبلغ عدد سكانها يومئذ في أقل إحصاء مليون نفس ، وورد لبعض المؤرخين انها بلغت المليونين .

كل ذلك في مدة لم تتجاوز خمسين سنة من وضع أساسها ، وهو مما لم يحكه التاريخ عن مدينة سواها على وجه البسيطة ولا عجب في ذلك ، فان أحوال هذه الامة البدوية الفتية ، قد حيرت عقول الفلاسفة والمؤرخين والعلماء ، قال الفيلسوف غوستاف لوبون ما محصله : ان مدنية الامة العربية لم يسبق لها مثال في تاريخ البشر ، وقد لا يكون لها مثيل الى الابد ، اذ ان هؤلاء البدو الذين حين فتحهم ممالك فارس والروم ، حسبوا الخبز المرقق ورقاً عندما قدموه لهم ، وظنوا الكافور الذي وجدوه في خزائن كسرى ملحاً فاستعملوه في عجينهم ، هؤلاء البدو قد بلغت حضارتهم في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مدة قرنين ، ما لم تبلغه أمة من الأمم في قرون متطاولة ، فقد أتقنوا الصناعات ، وبرعوا في أصناف العلوم ، ونقلوها الى لسانهم ، وعلموها الامم الاوربية ، فأوربا مدينة لهم اليوم باكثر علومها ، وتأنقوا في المأكول والمشروب ، والملبوس والمفروش ، وسائر أدوات الزينة وأسباب الترفه والنعيم ، وتركوا في الاندلس وغيرها من آثار حضارتهم ، ما يُديم لهم فخراً لا يبليه تقادم الزمان ، وتبدل الحدثان .

وقال أرنست رينان سيبويه علماء المشرقيات ما تعريبه باللغة العربية : خرجت اللغات السامية من ضيق الدائرة التي ظلت سجينةً بها الى ذلك الحين ، ووصلت الى مقام شمل به تأثيرها أقطار الدنيا ، ولم يشهد البشر فتوحاً ، أوفر اتساعاً وأعظم سرعة من فتوحاتها .

فاللغة العربية هي بغير مدافع ، اللغة التي امتد فتوحها في أوسع بقعة من الارض ، ولا يوجد بين اللغات سوى لغتين تقاسمانها شرف الانتشار ، وتُعدّ ان لغتين عامتين ، وهما اليونانية واللاتينية ، أريد انهما لسان دعوة دينية ، او فكرة سياسية ، وكلاهما فوق اختلاف الاجناس ولكن امتداد الفتوحات اليونانية واللاتينية ، لا يقارب الفتوحات العربية ، لان المتكلمين باللاتينية كانوا من كامباني (مقاطعة من ايطاليا القديمة) حتى الجزائر البريطانية ، ومن الرين حتى جبال الأطلس (في شمال افريقيا) وكان المتكلمون باليونانية من صقليا (سيسيليا) حتى دجلة ، ومن البحر الاسود حتى الحبشة .

وأين هذه كلها في جنب مملكة اللغة العربية العظيمة ، وقد شملت اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وآسيا الجنوبية حتى جزيرة جاوا ، وروسيا حتى قازان .

وقال في موضع آخر من كتابه « التاريخ العام في اللغات السامية » : ان اوربا لم تنج من تأثير اللغة العربية الشامل ، فالاسبانيول والبرتقاليون قد أخذوا الى لغتهم الفاظاً عديدة عربية في سائر الاشياء ، وحوت جميع اللغات الرومانية — اللاتينية — عدداً كبيراً من الالفاظ العربية ، وجلها للتعبير عن الاشياء العلمية والصناعية ، وكانت أمم اوربا في القرون المتوسطة دون الاسلام (العرب) بمراحل .

اولئك أقوامي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واذ جرى بنا الحديث الى الكلام عن لغة المأمون ، وهي لغتكم الشريفة أيها السادة : وكنا نظمنا منذ سنوات قريبة قصيدة في وصفها لحادثة معلومة في يومها ، ودعوناها (البدوية) رأينا ان نضمها في سلك محاضرتنا وان طال عليكم الوصول الى ليلة العرس :

« البدوية »

بالله يا نسمات الرند والبان ... من نجد جئتن ام من روض غسان
وهل لمستُن من ذات الدلال رداً ... ام حدثتكن من أقصى تلسان
فان فيكن ريحاً من ملابسها ... فطيب ليلى بانفاس وأردان
وهل لثمتن من ليلي مباسمها ... إني عليها غيور ايُّ غيران
اني أغار عليها من صواحبها ... والحاسدات ومن انسٍ ومن جان
فان ليلي فتاةٌ لا مثيل لها ... صيغت من الحسن شكلاً ماله ثان
الى البدارة منسوب منابتها ... وان تميتَ فهل فخر كمدنان
هيفاء لا قِصَرٌ فيها ولا طِوَلٌ ... تجرُّ أذيال إدلال وإتقان
غزالة تسحر الالباب نظرتها ... والمسك نكهتها لا ريح ريحان
تدنو لعاشقها تجفو لناكرها ... تثيب عدلاً بتنويل وحرمان
تشبّه الحضريات الحسان بها ... وهل كذا بل جفنٍ جفنُ سكران
وكلُّ ثوب عليها ثوب فاتنة ... ولم يشن حسنها تبديل ألوان
وثوبها يقبل الازياء ما اختلفت ... وليس يُخْلِقُه تكرار أزمان
حروفها لمعانٍ لا تطاولها ... في حسنها بنت يونان ورومان
ألفاظها درٌّ تركيبها سُوَرٌ ... آياتها غُرَرٌ في كل قرآن
غريزةُ الفضل لم يجحد محاسنها ... الاَّ جهولُ بايجاز وتبيان
لها الفصاحة تُعْزَى اينما وجدت ... شهودُها مثلُ قسٍّ او كسحبان
وفي البلاغة هل خَوْدٌ تضارعها ... وأصلها صاعدٌ يسمو لقحطان
وبعض خدامها عبد الحميد ومن ... تلاه من اصفهانيٍّ وجرجاني
وغيرهم من ملوك الفضل آخرهم ... رب النهى اليازجي الكوكب الثاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكم لجناتها في ارض لبنان ... من هائم في معانيها وبستاني
والشعر محتدها من ذا ينازعها ... فيه وكم تيمت من ندّ حسّان
بلابل الشعر غنتها بدائعه ... على عجائب أوزان وألحان
وربّة الشعر ناجتها مواهبها ... فانحط عن عرشها عرش لكيوان
وقلدت جيدها عقداً ترفّع عن ... عقود درّ وياقوت ومرجان
فكلّ شعر الى أدنى منازلها ... أعلى مراتبه مستشفع دان
وهل أُميّة صالت واستقام لها ... ملكٌ، وطرفٌ لليلى غير يقظان؟
هل استعان على تثبيت ما جمعت ... الا بالفاظها ذاك الخراساني
وهل سما عرش هارون الرشيد على ... ملكٍ بناه على عدل وعمران
والارض في ظلمةٍ للجهل حالكة ... وملكه مشرق من نور عرفان
الا وأعلام ليلى غير خافيةٍ ... في كل مأثرة من غير برهان؟
وهل خليفته المأمون ردّ لنا ... علمَ الأوائل من أقوام يونان
الا بألفاظ ليلى غير ملتمسٍ ... في حسن تعريبها الفاظَ أعوان
ودولة الناصر العظمى باندلسٍ ... قامت بمدهش عمران وبنيان
في كل فن بسهم وافر ضربت ... ولفظ ليلى بآذان وأذهان
لم يتخذ بدلاً منها ولا سنداً ... لها سوى بعض تباع وغلمان
وكم وكم دول من بعدها درجتْ ... ضامت بليلايَ في سر وإعلان
للشعر للعلم ليلى للفصاحة قد ... جاءت بأبدع مرويٍّ لإنسان
وفي السياسة والتدبير كم خنقت ... لحسنها رايةٌ من فوق تيجان
وفي الصناعات لم تعثر لها قدمٌ ... وفي الحروب تخطت كلّ ميدان
مجازها واشتقاق لا مثيل له ... ونحتُها معجزاتٌ كل بهتان
ما ضرّها انها والحسنُ عابدُها ... لها حواسدُ من أهل وجيران

.... انتهى ما يناسب الغرض منها .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« فتوح المأمون وغزواته وأخلاقه وعلومه وصفاته »

قامت في سبيل المأمون عقب إعلان خلافته عقبات شتى ، اذ انتشرت الفتن على أثر اختلافه مع أخيه المأمون وحروبهما ، وطمع بالخلافة غير واحد من بني العباس ، وافترق الناس فرقاً ، فرقة مع هذا وفرقة مع ذاك ، وكادت تضعضع اركان الملك ، فأظهر المأمون من الحزم والشجاعة والحلم وحسن التدبير ، ما كان فيه نسيج وحده ، اذ قمع الفتن ، ومهد الأمن ، وبسط العدل ، وغزا وفتح فتوحاً جليلة .

وكان المأمون أعظم بني العباس سؤدداً ومجداً ، وعزماً وسماحة ، وحلماً وشجاعة ، وعلماً وفضلاً ، كثير العفو ، ومن مآثر كلامه « لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا اليّ بالجرائم » وكان عارفاً باليونانية والعبرية والهندية والفارسية ، عالماً كبيراً وشاعراً وخطيباً ومحدثاً ، متبحراً في الفلسفة والهيئة ، فصيحاً محباً للعمران والحضارة ، ولم يكن نظيره في كل من تقدمه من الخلفاء في حب العلوم والمعارف ، وكان لشغفه بالآداب والفضل عقد عهد صلح مع (تيوفيلوس) ملك الروم في القسطنطينية على ان يستنسخ له جميع المصنفات اليونانية ، ووجه بعثاً آخر يحمل اليه من جزيرة قبرص كل ما وجد هناك من الذخائر العلمية وكانت الجزيرة قد دخلت في حوزة دولته .

فأمر المترجمين كحنين بن اسحق وثابت بن قره ويعقوب الكندي ويوحنا البطريق وغيرهم بتعريب ما لديهم من الكتب اليونانية والسريانية في الحكمة والطب والموسيقى والعلم الطبيعي والسياسة المدنية والنفس والحيوان والنبات والجبر والهندسة والهيئة ، وكان عنده جماعة كبيرة من المنجمين فجمع علماء عصره وأمرهم ان يضعوا آلات الرصد ليقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها ، كما صنع بطليموس ومن كان قبله ففعلوا ، وأمر ببناء المرصد في الشماسية ببغداد ، ومرصداً آخر على جبل قاسيون في دمشق ، وسموه (الرصد المأموني) .

ومن أعماله المخلدة في كتب العلم والتاريخ قياسه للدرجة من خط نصف النهار ، فانه أمر بني موسى محمداً واخويه احمد والحسن بالوقوف على دور كرة الارض وكان الاقدمون يرون ان كل درجة من درج الفلك يقابلها ستة وستون ميلاً من سطح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الارض ، فلما مسحوا الاراضي المتساوية وحرروها وجدوا ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلاً فقط وهو المعتبر ليومنا هذا بفرق قليل جداً .

ثم انه عكف على جمع الكتب وجعل القيم على خزانة كتبه محمد بن موسى الخوارزمي ، وهو اول من ألف في الجبر والمقابلة بالعربية ، ثم امر بانشاء المدارس للعلوم المتعددة ، وكثرت الكتب في ايامه ايضاً ونفقت سوق العلوم ، وقامت دولة الحكمة في عصره كسائر الفنون والناس على دين ملوكهم .

وكان يجمع في قصره العلماء مرةً في كل اسبوع ، وهو اول مجمع علمي عقده سلطانٌ في قصره ، وكان يوزع جوائز وانعاماً على المؤلفين البارعين في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ، ويحضر بذانه المحاكمات في ذلك اليوم حسب الفقه الحنفي .

« وزراؤه وقواده وعماله وشعراؤه وأطباؤه وعلماؤه »

كان في رأس وزرائه ذو الرئاستين الفضل بن سهل السرخسي وكان داهية عاقلاً عالماً بعيد النظر حسن التدبير وفيه يقول مسلم بن الوليد :

أقمتَ خلافة وأزلتَ أخرى جليلٌ ما أقمتَ وما أزلتا

ومن عماله الحسن بن سهل وهو اخو الفضل وسيأتي ذكره ، ومن قواده ذو اليمينين طاهر بن الحسين الخزاعي الشجاع الأديب ، وهو صاحب الكتاب المشهور في كتب التاريخ والأدب ، كتبه الى ابنه عبدالله عندما ولاّه المأمون مصراً ، ولما وقف عليه المأمون قال ما أبقى ابو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من امر الدنيا والدين والتدبير والرأي والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، الا وقد أحكم وأوصى به ، وامر المأمون فكتب به الى جميع العمال .

اما ابنه عبد الله هذا فكان ايضاً قائداً شجاعاً عاقلاً أديباً وتنسب اليه الابيات المشهورة .

نحن قومٌ تُلينُنا الحدق النجـ ـل على اننا نُلين الحديدا

طوع ايدي الظباء نقتادنا العيـ ـنُ ونقتاد بالطعان الاسودا

وكان شعراء المأمون ابا العتاهية وصريع الغواني وعلي بن الجهم والصولي والخليع ابن ياسر وأضرابهم ، ومن أطبائه حنين بن اسحق العبادي وجرجس بن بختيشوع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويعقوب الكندي وابو بكر الرازي وجبرائيل وقسطا ابنا لوقا البعلبكي وأمثالهم ، ومن منجميه الفرغاني وابن نوبخت ومحمد بن موسى الخوارزمي وأخواه وماشاء الله اليهودي وابن منصور والجوهري واضرابهم ، ومن القُصّاص الاصمعي وابو عبيدة ، واما العلماء والنحاة الذين كانوا يجلسون في حضرته فكثيرون نكتفي بذكر الفراء والكسائي واليزيدي وقطرب والجاحظ والأخفش وأضرابهم ، ومن قضاته يحيى بن اكثم وابو عبد الله الواقدي واحمد بن ابي دؤاد ، ومن الفقهاء الامام الشافعي والامام احمد بن حنبل .

وان ما ذكرناه طرف من صفات المأمون وما كان يشتمل عليه بلاطه من المجد والمفاخر ، ولو قصدنا الى تصوير نفسه العالية الشريفة ، وتفصيل همته الصاعدة المنيفة لاحتجنا من الوقت الى شهر ومن اللفظ الى معادن الدرّ .

كان المأمون ربعةً ابيض جميلاً ، طويل اللحية رقيقها قد وخطها الشيب . فان فاخرت الامم بقديمها وهي تفاخر دون شك ، فهذا قديمكم أيها السادة .

شرف يسطح النجوم بروق ـ يه وعزٌّ يقاقل الاجبالا

« الحسن بن سهل حمو الخليفة »

كان كريماً عالي الهمة ولاّه المأمون جميع البلاد التي افتتحها طاهر من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن ، ومَن تولى مثل هذا الملك الواسع في ذلك العهد وكان حائزاً ثقة المأمون ورضاه لا عجب اذا كان اغنى غنيّ في تلك الدولة ، وقد كانت الطريقة أقطاعاً كما تقدم البيان .

« بوران بنت الحسن عروس المأمون »

اسمها خديجة وبوران لقب لها او هو اسم فارسي واشتهرت به ، ولدت للسنة ١٩٢ هـ وعُقد عليها للمأمون في السنة الثانية بعد المائتين ، وكان عرسها في العاشرة بعد المائتين ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن جمالها وعقلها ، بل ردد كلهم عبارة واحدة ، تلك ان المأمون تزوجها لمكان ابيها منه وهذا ليس بالبرهان المقنع ، فقد كان في آل العباس من هم اعلى قدراً في عيون الناس من الحسن بن سهل وأقرب رحماً من المأمون ، ولو أزوجها المأمون واحداً من بني العباس المقربين منه لكفى الحسن بذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شرفاً ، فلا بد من ان يكون اختيار المأمون بوران لجمالها او لعقلها وعلمها او لكليهما معاً . وقد كان العقد في الثانية بعد المائتين للهجرة كما تقدم وعمرها يومئذ عشر سنوات ولم يتم الزواج الا في العاشرة بعد المائتين ، وكانت بوران قد بلغت الثامنة عشرة وهذا مجال نظر للناقد ، فقد كانت العرب — وحرُّ بلادهم معلوم ولا سيما بغداد — يتزوجون البنت في الثانية عشرة ثما فوقها ويرون كمال فتوتها وزهو صباها في الرابعة عشرة ولا سيما الملوك والامراء ، فما السبب في تأخير عرس المأمون ثماني سنين ؟ أكانت غزوات المأمون وكثرة الفتن من الأسباب التي عاقته كل هذه المدة ام لسبب آخر ؟ لقد أغفل المؤرخون الاولون ذكر كثير من امثال هذه الاحداث الهامة وأسبابها ، بيد ان لها شأناً عظيماً في اعين الناقد مستطلع عادات ذلك الزمن واخلاق اهله وسائر احوالهم ومدنيتهم ، وبات الفوز بذلك بعد تطاول القرون وتقلب الشؤون مما لا مطمع في الوصول اليه او الحصول عليه من مظانه في كتب التاريخ ، فحسبنا ان نشير الى ذلك هذه الاشارة حتى اذا اتفق لاحد الادباء العثور عليه في تضاعيف القصص او في كتاب من كتب الادب نبه عليه خدمة للعلم .

« ليلة العرس »

كان الحسن بن سهل مع اهل بيته في معسكره بفم الصلح وهي بلدة كانت بين الكوفة والبصرة على نهر كبير يسمى الصلح تبعد ثماني مراحل عن بغداد ، فنهض المأمون اليها لثمان ليال من مضت رمضان في السنة العاشرة بعد المئتين يتقدمه العسكر والقواد والندماء والمغنون والشعراء والعلماء والقضاة والفقهاء وكبار العباسيين من اهل بيته ، وسار خلفه الحشم والخدم والاتباع وسائر بطانته على الخيول الرائعة والبراذين والبغال الفُرُه ، وكان يسبقهم الجمالون والمكارون والحمالون والملاحون والفراشون في جمع لا يدرك الطرف آخره .

وكان الحسن بن سهل قد خرج لاستقبال الخليفة بعسكره وحشمه ، فلما وقع بصره على موكب المأمون امر عسكره بالمسير امام عسكره ، وترجل حتى اقبل على قدمي المأمون ويديه يقبلهما ، فقابله الخليفة بأنسه وبشاشته ثم امره بمواكبته فسار في بطانته ، ولما وصلوا الى فم الصلح خرجت المدينة باجمعها لملاقاة المأمون وكان يوماً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مشهوداً لم ير مثله الراؤون ، فنزل الخليفة عن جواده تكتنفه العظمة والجلال وتبسم له ثغور الاماني والاقبال ، وذلك الموكب العظيم يسير بين يديه وكانت قد ضربت له الخيام والسرادقات والقباب من منسوج الحرير والديباج الموشّى ، فدخل قبةً فرشت ارضها بالبسط والزرابي الخسروانية وعلى طاقاتها الستور اليمانية وفي حضرته عظماء الدولة واكابرها والشعراء والندماء والمغنون والعازفون ، وقام الحسن بن سهل يخدم بين يديه ، ثم مُدّت أمامه الموائد الفارسية ، وتقدمت الوان الطعام في الاواني الذهبية وانشد المنشدون وتبارى المغنون ، ولما كانت الليلة الثالثة من وصوله زُفّت اليه (بوران) فلما دخل قبتها كان عندها (حمدونة) بنت هارون الرشيد أخته لأبيه و (زبيدة) امرأة هرون الرشيد ام اخيه الامين و (جدة بوران) ام ابيها ، وكان قد أوقد عندها شمعة عنبر مرفوعة على شمعدان من الذهب ثقلها مئة منّ ، وذلك نحو خمسة وعشرين رطلاً حلبيًا ، وفرشت ارض القبة بحصير منسوج بالذهب ، ولما اقتربت بوران من المأمون لتهنئه بقدومه نثرت جدتها عليها الف درّة من أنفس ما يكون من كبار اللؤلؤ كانت في صينية من الذهب ، ولما رأى المأمون تساقط اللآلئ على قدميه قال قاتل الله ابا نواس كأنه شاهد هذه الحال حين قال :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درّ على ارض من الذهب

ثم امر بجمعها فجمعت فأعطاها بوران وقال سلي ما ترغبين ، فلم تنطق بحرف ، فقالت لها جدّتها (كلي سيدك فقد أمرك) فقالت : اسأل سيدي الرضاء عن عمه الامير (ابراهيم بن المهدي) — وكان ذنبه عظيماً — فقال قد فعلتُ ، فقالت : واسأل سيدي الاذن لسيدتي ام جعفر في الحج — وهي زبيدة زوج هرون الرشيد — فقال أذنتُ ، ثم ألبستها البدلة اللؤلؤية الأموية المشهورة ، ولعلها مما غنمه العرب من الروم في دمشق او مما وقع لهم من الفرس عند فتح المدائن ، ثم استولى عليها العباسيون في جملة ما استولوا عليه من خزائن الأمويين اذ من المعلوم ان الدولة الأموية لم تصل الى ما بلغته الدولة العباسية لذلك العهد ، من رقة العيش في المأكول والمشروب والملبوس والمفروش والماعون وسائر عوائد الترف وأحوال الجسد والنعيم ، فليس بالمعقول ان يتزيا العباسيون بزيهم او ان يلبسوا ملابسهم وبين البيتين من البغضاء ما هو معروف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبينما كانت ام الحسن بن سهل تنثر اللآلئ على المأمون وبوران ، كان والد بوران ينثر على الهاشميين والقواد وعظماء الدولة وسائر الطبقة الاولى بنادق مسك في كل بندقة رقعة باسم ضيعة او دار او مزرعة او جارية او فرس او غير ذلك ، فيفتح الرجل البندقة ويقرأ ما فيها ، ثم يمضي الى وكيل أُرصد لذلك فيدفع اليه الرقعة والوكيل يسلمه ما في الرقعة سواء كان ضيعةً او ملكاً او جارية او غيرها ، ثم خرج الحسن من ذلك النادي وأقبل على الطبقة الثانية ، فبدأ يفرق بدر الدنانير الى عشرة آلاف ، ثم انتقل الى الطبقة الثالثة فنثر عليهم الدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر .

وظل المأمون عند الحسن تسعة عشر يوماً كان يُعدُّ له فيها ولجميع من معه كل يوم من الأطعمة الملوكية والمشروب وسائر اسباب اللهو والسرور ما يقصر عنه الوصف ، فلم يكن في العسكر ومن ضمهم من المكارين والجمالين والملاحين من يحتاج الى شراء شيء لنفسه او لدوابه ، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين مليون درهم او خمسة ملايين ليرة فرنسوية ذهباً .

ثم نهض المأمون وسار ومن معه الى مدينته المأمونية وكان بعث فأمر النواتية بتجهيز الحراقات (السفن) لاجازة خواص الناس بدجلة من بغداد الى قصوره في المأمونية (مدينة المأمون) لحضور الولائم ، فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين الفاً تسير في دجلة ، وقد تأنقوا في تزيينها بالالوان وطلوها بالذهب وفرشوها بالبسط والسجادات وأناروها ليلاً بمختلف الالوان ، فكانت كالسهام تشق قلب الماء وتظهر عن بعد في الظلماء كأنها نجوم السماء ولا يسمع منها الا اصوات المغنين والمغنيات والعازفين والعازفات بين عود ومزمار وكاسات تُدار .

وفي فمه ناي يُدير سُلافةً هي السكر الا انه لا يُحرَّمُ

« وفي فمها شابةٌ تبعث الهوى ونحن سكوت والهوا يتكلم »

وكانت مدينة المأمون قد لبست من الزينة حللاً ما وراءها لمتطلع غاية ، وكان الحطب المُعَدّ للوقيد بدار الطبخ مائةً واربعين بغلاً مدة عام كامل ثلاث مرات في كل يوم وفيّ الحطب لليلتين فأوقدوا القصب يصبّون عليه الزيت .

اما قصور المأمون فقد كانت تلك الليلة في حسن وأبهة بعجز القلم عن وصفها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان الراكب في دجلة يشرف عليها من بعد شاسع ولا سيما قبابها ، فمن مجصص بالجص الابيض الناصع كالفضة البارقة ومن مطليّ نصفه السفلي بالاخضر الناضر والنصف العلوي بالذهب الضارّ وفوقها جامات الذهب تتلامع كالشهب المتقدة ، ثم يبدو للعيون جمال تلك الحدائق الممتدة الى أقاصي مدى البصر تتسرب فيها جداول الماء من بركٍ عظيمة الاتساع مختلفة الاوضاع ينصب فيها الماء كالفضة الذائبة من افواه حيتان او سباع او نسور او ثيران ، من مرمر مختلف الالوان ، بالغ من الصناعة نهاية الاتقان ، بين جنات قد ازدحمت غياضها واشتبكت اشجارها وتغنت أطيارها وتعانقت أغصانها وامتد ظلالها ، يسير فيها الداخل تحت أقبية وأطواق من فسيفساء الاوراق ، في مماش كأنما ارضها خمائل سندسية ، وعلى جانبيها درابز بنات لا يدرك الطرف منتهاها ، قد اعترش عليها الياسمين ، وتعلق بها الورد والنسرين ، ونمت حولها الازاهر والرياحين ، وقامت وسطها القصور الباذخة والصروح الشامخة والاروقة المرتفعة والجواسق المتقة ، ذوات الساحات المترامية ، والصحون الفساح والافنية الرحاب ، والاندية العظيمة طيقانها أبواب وابوابها حيرة الالباب ، قد أرخيت عليها ستور الديباج والاستبرق كأنها اجنحة الطواويس ، وفُرشت ارضها بأنواع الفسيفساء تحاكي ازاهر الجنان ومتعادي الحيوان ، من أسود ونمور وغزلان برخام متعدد الالوان ، يخالطه خشب الصندل والعود الهندي ، وفي كل بهوٍ بركة او برك تنساب اليها المياه الصافية على ملون المرمر كاللجين الذائب ، والسمك على اختلاف الاشكال والالوان تصعد سيفي مائها وتنحط وتعوم كما يعوم فيها البط ، وقد رُقشت حيطان تلك الابهاء بالقاشاني البديع ، يحاكي بألوانه ورسومه ازهار الربيع ، ورُفعت سقوف تلك الاندية والابهاء الرحاب على اعمدة المرمر ذوات الالوان الباهرة ، وقد أحكم صنعها ونقشها وتكامل حسنها بتذهيبها ورقشها ، وقامت قبابها على قناطر وحنايا واضلاع ، بلغت بها صناعة الهندسة غاية الابداع ، ودارت فيها الطيقان كالقلائد في اعناق الحسان ، وقد قعدت على اساطين وسوارٍ ركزت على قواعد من الصوان ، وتقنعت باقداح كالنرجس من رخام ، وبلغت من الزهو والارتفاع ما لا سبيل معه الى إمتاع النظر بأعاليها الا بانقلاب رأس الناظر الى آخر المستطاع ، وقد طليت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تلك السقوف والقباب بألوان تحار في محاسنها الابصار ، و يأخذ إبداع رسومها بمجامع القلوب ، وألبست من الذهب الوهاج انواراً يرتد عنها الطرف كليلاً .

وكانت لا تقع العيون في تلك الاندية والابهاء والغرف والمقاصير الا على محاسن قد تناهت في الظرف ، وملاحة وإبداع يقصر عنهما كل وصف ، فمن حيطان من الزجاج رُفعت وراء الشرفات تنعكس عنها الانوار الى داخل القباب ، ومن حيطان من جسيم الرخام حاكت بحفرها ورسومها جبائك الغمام ، او اجنحة الطيور او غلائل الحسان او ظهور السمك والحيتان ، او صور الغزلان وغيرها من الحيوان ، بين مجعّد ومفوّف ، ومسيّر ومنمّر ، ومكفوف وملفوف ، الى أشكال والوان يعجز وصفها ، و يضيق عنها التفصيل والتعبير ، والتمثيل والتصوير ، وفي كل قصر قصور ، وفي كل نادٍ روضة وغدير وغرف ومقاصير ، وسجوف مرسلة وستور متراخية وسرر مرفوعة وارائك مصنوعة وحجال منصوبة ومجالس مفروشة ومقاعد موضوعة وكراسي مصفوفة وطنافس مبسوطة ، وموائد قائمة وابار بقي مبثوثة وخواب مسنودة ونوجسيات منسوقة ، وأوان مختلفة الاشكال نادرة الحسن والمثال ، من الصيني والزجاج والذهب ونفائس المعدن وغرائب التحف وعجائب الطرف ، ومجامر العنبر ومباخر الند وقماقم ماء الورد الى ما لا يبلغه عد ، ولا يتخيله فكر شاعر .

تلك هي القصور التي قامت بها الافراح المأمونية والولائم العباسية ، ولما وطئت ارضها بوران اعطاها المأمون في مهرها الف حصاة من نفيس الياقوت .

وقد ظلت الولائم قائمة في تلك القصور اياماً متوالية ، و كل الذي وصفناه ان هو الا خيال ضئيل لحقيقة ذلك العرس الجليل ، فانه عرس لم يرَ له التاريخ مثيلاً ولا بدع فالمأمون فرد لم يزل الزمان بمثله بخيلا .

ولعلنا نأتي في محاضرة أخرى على ما كان للدولة الأموية الثانية في الغرب من الفتوحات الباهرة ، والآثار الخالدة الفاخرة ، والمدنية العظيمة الزاهرة ، مما تنشرح له الصدور وتهتز النفوس ، وتعلو القيم وترتفع الرؤوس ، و يقال عنده لا عطر بعد عروس .

عضو المجمع العلمي العربي
قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net